

مختصر ابن كثير

56 - يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون .

57 - كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون .

58 - والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين .

59 - الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون .

60 - وكأين من دابة لا تحمل رزقها ۖ يرزقها وإياكم وهو السميع العليم .

هذا أمر من ۖ تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين إلى أرض ۖ الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا ۖ ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال تعالى : { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدوا } . عن الزبير بن العوام قال قال رسول ۖ صلى ۖ عليه وسلّم : " البلاد بلاد ۖ والعباد عباد ۖ فحيثما أصبت خيرا فأقم " (أخرجه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام) ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك (أصحاب النجاشي) ملك الحبشة C تعالى فأواهم وأيدهم ثم بعد ذلك هاجر رسول ۖ صلى ۖ عليه وسلّم والصحابة الباقيون إلى المدينة المطهرة ثم قال تعالى : { كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون } أي أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا في طاعة ۖ وحيث أمركم ۖ فهو خير لكم فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم إلى ۖ المرجع والمآب فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى : { والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار } أي لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا { خالدين فيها } أي ما كثر في فيها أبدا لا يبغون عنها حولا { نعم أجر العاملين } نعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين { الذين صبروا } أي على دينهم وهاجروا إلى ۖ ونابدوا الأعداء وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه ۖ ورجاء ما عنده .

وفي الحديث : " إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها ۖ تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وتاب الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام " (أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري مرفوعا) { وعلى ربهم يتوكلون } في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة بل رزقه تعالى عام لخلقه

حيث كانوا وأين كانوا بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ولهذا قال تعالى : { وكأين من دابة لا تحمل رزقها } أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد { وإنا يرزقها وإياكم } أي إنا يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض والطير في الهواء والحيتان في الماء قال تعالى : { وما من دابة في الأرض إلا على إنا رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين } وروى ابن حاتم عن ابن عمر قال : خرجت مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي : " يا ابن عمر ما لك لا تأكل ؟ " قال قلت : لا أشتهيه يا رسول الله قال : " لكنني أشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ " قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت : { وكأين من دابة لا تحمل رزقها } يرزقها وإياكم وهو السميع العليم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا بتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ألا وإنني لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبأ رزقاً لغد (الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وفي إسناده ضعف كذا قال ابن كثير) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سافروا تربحوا وصوموا تصحوا وغزوا تغنموا " (أخرجه الإمام أحمد ورواه البيهقي عن ابن عمر مرفوعاً باللفظ (سافروا تصحوا وتغنموا) . وقوله : { وهو السميع العليم } أي السميع لأقوال عباده { العليم } بحركاتهم وسكناتهم